مجلة مركز بحوث ودراسات

المدينة المنورة

العدد التاسع والعشرون / ربيع ثاني - جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ . أبريل - جون ٢٠٠٩م

٢٩

- الصُفَّة تاريخها-أصحابها.
- الحياة السياسية والاقتصادية بالمدينة المنورة من خلال رحلة بيركهارت ١٢٣٠هـ
- المدينة المنورة في عيون الرحالة الغربيين
- الإعجاز العلمي في دعاء الرسول تصحيح المدينة

الحياة السياسية والاقتصادية
بالمدينة المنورة في رحلة بيركهارت
١٢٣٠هـ

د. عبد الباسط عبد الرزاق بدر

مساعد المدير العام بمركز بحوث ودراسات

المدينة المنورة

تقـــديم لا أعرف عملاً تتجاذبه عدة علوم إنسانية وتستفيد منه مثل كتابات الرحالة عن رحلاتهم، فمنظّرو الأدب يعدونها جنساً أدبياً كاملاً ويُقنِّنون أصوله وقواعده ويسمونه: أدب الرحلات، وكُتَّاب التاريخ يَعدُّونها واحداً من مصادرهم المهمّة ما كان الرحالة صادقاً في وصف ما يشهده من أحداث، وما ينقله عن من لقيهم من أخبار، ويصنفونه ضمن شهود العيان الموثوقين، حتى الجغرافيون ينظرون إلى ما يرد في كتب الرحالة من حديث عن المعالم الطبيعية والعمرانية على أنه جزء من مادّتهم. والأمر نفسه لدى كُتَّاب التراجم الذين يلتقطون ما تتضمنه تلك الكتابات من عبارات وإشارات عن الأعلام المعاصرين للرحالة، ويجعلونها جزءاً من الترجمة أو مصدراً صحيحاً من مصادرهم، والحقّ أن كلاً من أصحاب تلك العلوم مُصيب فيما ذهب إليه، فالرحالة أديب في حديثه الشيق عن أحداث رحلته ومشاهداته، ومؤرخ فيما ينقله من أخبار عاصرها وشهدها بنفسه أو نقلت إليه عن قرب، وجغرافي فيما يصف من معالم، وله إسهام في كل علم يستفيد من كتاباته إذا كانت

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

موضوعية ومنهجية تحسن رصد الظواهر وتسجيلها، وربما المشاركة في تحليلها وإبداء الرأي فيها.

ولقد لفت نظري قبل سنوات عدة وأنا أقرأ ما كتبه الرحالة بيركهارت في كتابه (رحلات في شبه الجزيرة العربية) تشابكُ أطراف من تلك العلوم الإنسانية في وصفه المدينة المنورة، وحديثه المتميز عن جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والعمرانية والسكانية فيها، حتى العادات والتقاليد والأزياء، ووجدت في ذلك الوصف الكثير مما يبحث عنه المؤرخ ليستدرك ثغرة تجاوزها الآخرون ولم يقيّض لها من يسد فراغها بعد.

ولما اختار النادي الأدبي (الرحلات إلى المدينة) ميداناً لدراسات تحتضنها ندوة موسعة، وحدد لي الكتابة في محور (القضايا السياسية والاقتصادية) استعرضت عدداً من كتب الرحلات وفي نيتي أن أقوم برحلة فيها متتبعاً قُطبي السياسة والاقتصاد، وراصداً تطورهما من زمن إلى زمن فاستوقفتني ظاهرة وجدتها في كتابات بيركهارت لم أجدها عند غيره من الرحالة الذين قرأت كتبهم، ظاهرةُ رصد الحياة السياسية والاقتصادية بين عهدين مرّا على المدينة المنورة آنئذ، شهد بيركهارت أحدهما وهو العهد العثماني الذي أعاده جيش محمد علي باشا إلى المدينة، وعهد الدولة السعودية الأولى الذي كان على مسافة ثلاث سنوات فقط من زيارة بيركهارت للمدينة، وما زالت آثاره في حكايات أهلها وفي بعض معالمها.

وعندما يكتب رحالة غربي لا ينتمي ديانة وفكراً إلى أيٍّ من العهدين فمن الصعب أن نتهمه بالتعصب أو التحيز لأيٍّ منهما، وسنجد في كتاباته قدراً من الموازنة المنصفة والنقد الموضوعي.

وهذا ما وجدته وأنا أعيد قراءة كتابه بشكل عام، بل ووجدت معه رصداً دقيقاً لبعض تفصيلات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والثقافية والعمرانية، وتحليلات واستنتاجات غابت عن كثيرين من الرحالة الذين زاروا المدينة، ولا أنكر أنني استكثرتها من شاب في الثلاثين من عمره نزل المدينة مدة محدودة وشغله المرض في القسم الأوفى منها.

لذلك رأيت أن أقف عند تصويره للأوضاع السياسية والاقتصادية في المدينة المنورة، ورصده لتحولاتها بين العهد السعودي الأول من ١٢٢٠ـ١٢٢٦هـ والعهد العثماني الذي سبق، وتبع ذلك العهد القصير وملاحظاته الدقيقة واستنتاجاته التي يصحبها دائماً نقد موضوعي حيناً ولاذع متأثر بنوازعه الدينية والثقافية حيناً آخر، والتي أعدها ـ دون مبالغة ـ تميزاً واضحاً عن كثير من كتابات الرحالة الآخرين.

وقد اقتضت طبيعة البحث وحجمه المحدود أن أعرض بتركيز لصورة الحياة السياسية والاقتصادية التي صورها بيركهارت لكل عهد، ونوعية التحولات ومداها وآثارها، ومدى مصداقية الصور المعروضة.

كما أنني قدمت بنبذة تعريفية عن الرحالة ورحلته، وأرجو أن أكون قد وفقت لتحقيق ما هدفت إليه، والله المستعان، وهو ولي التوفيق.

الرحلة والرحالة

جوهان لودفيج بيركهارت واحد من الرحالة المتميزين في القرن التاسع عشر الميلادي، الثالث عشر الهجري، ومن القلائل الذين زاروا مكة والمدينة ودرسوا أحوالهما بعمق وكتبوا عنهما بتفصيل.

ولد بمدينة لوزان في سويسرا عام ١٧٨٣م وكان والده ضابطاً في الجيش السويسري، وعندما سقطت بلاده بيد الجيش الفرنسي عام ١٧٩٨هـ ترك الجيش ونزح مع أسرته إلى ألمانيا واستوطن في مدينة ليبزج فنشأ بيركهارت فيها، وتعلم في مدارسها، ثم درس المرحلة الجامعية في جامعة جوتنجن الألمانية، وتخصص في علم الكيمياء، وكان طموحاً يحب

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المغامرة، فلمّا تخرّج من الجامعة سافر إلى إنكلترا ودرّس في جامعتي لندن وكامبردج، وتجنس بالجنسية البريطانية، واتصل بالجمعيات الجغرافية التي كانت ترسل بعثات من المغامرين لاستكشاف المناطق التي لا تملك معلومات عنها في آسيا وأفريقيا، فقبلته الجمعية الأفريقية، وكلّفته بالسفر إلى مدينة تمبكتو وإرسال تقارير تفصيلية عن رحلته، وكانت قد أرسلت عدة بعثات من قبل فشلت جميعها وهلك أعضاؤها[1].

اطّلع بيركهارت على تجارب أسلافه الفاشلة، واتفق مع الجمعية على أن يستفيد من قافلة الحج التي تخرج من تمبكتو كل عام فيسافر معها في رحلة عودتها من مكة إلى تمبكتو، وهذا يقتضي منه أن يسافر إلى مكة أو أية محطة عربية تتوقف فيها، وأن يعدّ لذلك العدّة المناسبة، وأوّلها أن ينتحل شخصية مسلم يسافر لأداء فريضة الحج، وما يتبع ذلك من ضرورة تعلّم اللغة العربية وشعائر الإسلام.

وافقت الجمعية الأفريقية على خطته وزوّدته بالأموال اللازمة فبدأ ينفذ خطته ببراعة، فدرس اللغة العربية وشيئاً عن الإسلام والطب، وانتحل شخصية طبيب مسلم، وتسمى باسم إبراهيم بن عبد الله اللوزاني، وغادر بريطانيا في شهر مارس آذار عام ١٨٠٩م متجهاً إلى سورية عن طريق مالطة، وفي سورية اختار أن يقيم في مدينة حلب التي تكثر فيها حلقات العلم في المساجد فواصل فيها دراسة اللغة العربية والشريعة الإسلامية لمدة عامين، وتجوّل في بادية الشام، واختلط بالقبائل البدوية وخاصة قبيلة عنزة المنتشرة في مناطق واسعة تمتد إلى الجزيرة العربية، واستطاع بمساعدة البدو أن يصل إلى مدينة البتراء، ولم يكن أحد من الأوربيين قد وصلها

(١) انظر: كتاب رحالة غربيون في بلادنا لمحمد الجاسر ص٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بعد ، فاعتبر أول مكتشفيها.

وفي شهر فبراير، شباط ١٨١٢م سافر إلى مصر ليلحق بالقافلة العائدة من مكة إلى تمبكتو، وعندما وصل إلى مصر وجد أن القافلة سبقته ورحلت إلى تمبكتو فأقام فيها لبعض الوقت، وتعرف على طبيب محمد علي باشا الخاص، وهو أرمني يدعى بوصيرى ساعده على رحلته التالية إلى الصعيد والنوبة، كما تردّد على مكتبات القاهرة ومجالس شيوخها واقتنى عدداً من الكتب التي أفادته في رحلاته إلى مكة والمدينة وخاصة كتاب السمهودي وفاء الوفا في أخبار مدينة المصطفى، ثم أخذ يفتش عن طريق آخر تسلكه القوافل إلى تمبكتو وتوقّع أن يجده في الجنوب فسافر إلى بلاد النوبة، ولكنّه لم يجد القافلة ولا الطريق التي توصله لهدفه، فدخل السودان وانتظر موعد سفر قافلة الحج السودانية، وأبحر معها من ميناء سواكن في شهر يونيو حزيران عام ١٨١٤م الموافق شهر رجب ١٢٢٩هـ إلى جدة.

ويذكر بيركهارت في كتابه عن رحلته تلك أنه سافر إلى الطائف وقابل محمد علي باشا، وأن الباشا ارتاب فيه وشك في أن يكون جاسوساً لبريطانيا، ولكن الطبيب الأرمني الذي تعرف عليه في القاهرة أنقذه وحصل له على معونة مالية وخطاب يبين أنه مسلم وفي حماية الباشا.

مكث بيركهارت في مكة أكثر من أربعة أشهر، ودرس أحوالها وكتب مشاهداته فيها على طريقة المذكرات اليومية، ورسم خريطة لها، ثم غادرها في الخامس عشر من شهر يناير ١٨١٥م الموافق ٣ صفر ١٢٣٠هـ إلى المدينة المنورة مع إحدى قوافل الحج، فوصلها بعد ثلاثة عشر يوماً.

وبعد وصوله بأيام قليلة أصيب بالحمى، وعانى منها معظم المدة التي أقامها في المدينة، ولكنه رغم مرضه زار معظم معالمها، واستقى المعلومات

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من الذين لقيهم، واطلع على جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فيها، ووصف عمرانها، وقاس برجله طول سوريها، وسجّل ملاحظاته على كل ما شهده وسمعه فيها عنها، ورسم خريطة دقيقة لها، وسجّل عليها أهم معالمها، وبعد ثلاثة وثمانين يوماً من إقامته في المدينة غادرها مع إحدى القوافل إلى ينبع في شهر نيسان ١٨١٥م، وأبحر منها إلى مصر فوصلها في شهر يونيو حزيران ١٨١٥م وقد أرهقه المرض، وفوجئ بانتشار الطاعون في القاهرة فغادرها إلى صحراء سيناء واختلط بقبائلها البدوية لمدة شهرين ثم عاد إلى القاهرة، وعكف على إكمال كتبه وحضور بعض حلقات العلم وانتظار قافلة الحج العائدة إلى تمبكتو ليكمل رحلته، ولكن المرض اشتد عليه وتوفي في السادس من شهر نوفمبر عام ١٨١٧م الموافق للسادس والعشرين من شهر ذي الحجة عام ١٢٣٢هـ ودفن في مقابر المسلمين وكتب على قبره: هذا قبر المرحوم إلى الله تعالى الشيخ حاج إبراهيم المهدي بن عبد الله بيركهارت اللوزاني ولادته ١٠ محرم ١١٩٩هـ وتاريخ وفاته إلى رحمة الله بمصر المحروسة في ٢٦ ذي الحجة ١٢٣٢هـ.

لم يحقق بيركهارت هدفه الأساسي من رحلته وهو الوصول إلى تمبكتو والكتابة عنها، وانضمت بعثته إلى البعثات التي سبقته، ولقي المصير الذي لقيه أصحابها من قبل، ولكنّه حقق مكاسب علمية ربما تفوق ما كان يتوقع أن يحققه من رحلة تمبكتو، فقد وصل إلى قلب العالم الإسلامي مكة والمدينة، وشهد الحياة فيهما في مرحلة مليئة بالأحداث والمتغيرات، مرحلة صراع محمد علي باشا مع الدولة السعودية الأولى، وعودة الحجاز بأكمله إلى السلطة العثمانية ممثلة بسلطة الباشا، ورغم كل ما يقال عن تمرد محمد علي باشا على الدولة العثمانية

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ومغامراته الاستقلالية التي بلغت حد احتلال بلاد الشام وتهديد حدود أرض الروم (تركيا) فإن المناهج السياسية والعسكرية والثقافية كانت في إطار المنهج العثماني نفسه، على الأقل بالنسبة لما عاشته بلاد الحجاز تحت حكمه، فقد أعاد الباشا جميع مفردات الحكم العثماني وألغى كل ما جاءت به الدولة السعودية الأولى في سنوات حكمها القصيرة، وزاد على ذلك ما تجره تبعات الحروب من مشكلات أمنية وضائقات اقتصادية وعلاقات مختلفة مع السكان، وهو ما سنطلع عليه من خلال كتابات بيركهارت واستنتاجاته وأحكامه[1].

أولاً: الحياة السياسية رغم أن بيركهارت خص الجانب السياسي بفصل مستقل في كتابه عنوانه (**حول حكومة المدينة**) فإن عبارات كثيرة موزعة في كتاباته عن جوانب اقتصادية وعمرانية وسكانية تعطينا معلومات مفيدة عن الجانب السياسي، قد لا نجدها في حديثه عن حكومة المدينة، ونذكر هنا أن الارتباط الوثيق بين جوانب الحياة المختلفة وتأثير بعضها في بعض قد يكون السبب الحقيقي في وجود تلك اللمحات السياسية في هذا الموضوع وذاك، والذي يهمنا في دراستنا أن نلملم من العبارات المتناثرة أو المتوالية صورة للأوضاع السياسية في كل من العهدين السعودي الأول والعثماني، والتحولات الطارئة بينهما.

والواضح أن بيركهارت لم يفرق في تناوله للجانب السياسي في العهد

(١) استقيت المعلومات الرئيسة عن حياة بيركهارت من كتاب (**المستشرقون**) لنجيب العقيقي، ط٣، دار المعارف، مصر، الجزء الثاني ص ٤٧٥ -٤٧٦ وكتاب ر**حالة غربيون في بلادنا**) لحمد الجاسر. دارة الملك عبد العزيز الرياض١٤٢٣ هـ

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

العثماني بين ما حدث قبل العهد السعودي عندما كانت الإدارة في المدينة عثمانية كاملة وما حدث بعد سيطرة جيوش محمد علي باشا على المدينة وإنهاء حكم الدولة السعودية فيها، وكان يستخدم مصطلح (عثماني أو تركي) للدلالة على أيٍّ من الفترتين المذكورتين، وهذا يعني أنه لم يحسّ بأي فرق بين إدارة محمد علي باشا والإدارة العثمانية.

كما أن مفهوم العمل السياسي في كتابه ينصب على سياسة الحاكم الداخلية والقضايا الأمنية والإدارية، والصراع العسكري مع الدولة السعودية، فلم تكن المدينة في أيٍّ من الفترتين العثمانية الأولى والثانية والفترة السعودية إمارة مستقلة، ولا كان لها علاقات خارجية متميزة، إنما كانت في جميع الأحوال جزءاً من الدولة التابعة لها (ولاية في العهد العثماني وإمارة في العهد السعودي) وليس لها تعامل سياسي خارجي مستقل.

يبدأ بيركهارت عرض فصل (حول حكومة المدينة) باستعراض تاريخي موجز يبين فيه استقلالية الإدارة في (ولاية) المدينة وعدم تبعيتها لمكة منذ فجر الإسلام وعلى امتداد العصور التالية إلى العهد العثماني باستثناء فترات متقطعة اضطربت فيها الأوضاع الأمنية ونجح أمراء مكة في فرض سيطرتهم على المدينة[1].

ثم يصف سيطرة العثمانيين على المدينة في عهد الخليفة سليم الأول وابنه سليمان، الذي أرسل حامية عسكرية أكّدت الحكم العثماني، ولكنّها وزّعت الإدارة في شقين: شقّ عسكري يتولاه قائد الحامية ويدعى

(١) انظر: الرحلة ٣٠٥. سوف استعمل هذه الكلمة للدلالة على الكتاب الذي أدرسه وعنوانه (رحلات إلى شبه الجزيرة العربية) لبيركهارت ترجمة هتاف عبد الله مؤسسة الانتشار العربي بيروت ٢٠٠٥ م

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

آغا القلعة ويختص بالأمن والقضايا العسكرية، وشقّ مدني يتولاه شيخ الحرم ويدعى أيضاً آغا الحرم، ويعينه الخليفة العثماني نفسه ويكون الحاكم المدني والمرجع الأعلى لجميع قضايا الإدارة المدنيّة، ويرتبط برأس الدولة العثمانية مباشرة و(عليه مراسلة العاصمة باستمرار وانتظام)[١].

وقد استمرّ هذا النظام إلى نهاية الفترة العثمانية الأولى وسيطرة السعوديين (ويسميهم الوهابيين) على المدينة، ويصف بيركهارت مساوئ هذا النظام عندما ضعفت السلطة المركزية وانشغلت عاصمة الدولة العثمانية بهمومها الكثيرة ولم تعد تُعَيِّن الحاكم العسكري، فاستقل العسكر بهذا المنصب، وأصبحوا يختارون من بينهم رئيساً وتقر الدولة اختيارهم، وتبع ذلك تسلط العسكر على الحياة المدنية وتعسفهم، فأسيء (استعمال السلطة، وعمَّت المفاسد والتعسفات في القرن الأخير)[٢].

ويبدو أن استقرار الفرقة العسكرية في المدينة في القرن الحادي عشر الهجري جعل أفرادها يختلطون بأهل المدينة ويتزاوجون معهم، فنشأ جيل جديد من أبنائهم خلفوا آباءهم في السلك العسكري، وأصبح الجند من أهل المدينة نفسها، ولكن هذا الأمر لم يخفف من المفاسد بل زادها حدة، فقد أصبح القائد العسكري (آغا القلعة) الحاكم بأمره، وأصبحت العساكر طبقة مستقوية، وبلغ الأمر أن (استمر المنحدرون من نسلهم بالاحتفاظ بوظائفهم كما كانت محددة في السابق بالرغم من أن القسم الأكبر منهم قد ترك الوظيفة العسكرية)[٣]، ولكي يعزز القائد

(١) السابق نفسه.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق نفسه.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

العسكري سلطته زاد عدد جنوده وأدخل فيهم (من سكان المدينة والأجانب الذين استوطنوا هنا)[١].

وكان الجنود العاملون في الفرقة يحصلون على رواتبهم التي يشاركهم فيها العاطلون من أبناء العساكر السابقين، وكانت تأتيهم من القسطنطينية بانتظام ولكنهم لم يكتفوا بذلك، بل امتدت أيديهم بقوة السلطة التي يملكونها إلى الأموال التي كانت ترسل للفقراء وللمرافق العامة (فقد اغتصبوا حصة من الصرة[٢] أو الرواتب التي كانت ترسل إلى المسجد وإلى المدينة بأسرها)[٣].

ويزيد بيركهارت الصورة القاتمة تفصيلاً فيعرض التبعات التي نجمت عن هذا الفساد وأهمّها ظهور مراكز قوى أخرى تسهم في زيادة الفوضى الإدارية والتعسف منها زعماء الأحياء الذين صارت لهم سلطة لم يفصح بيركهارت عن نوعها ومداها، ونتوقع أن تكون سلطة محلية على أحيائهم وما جاورها من الأحياء الضعيفة أو التي يكون زعيمها ضعيفاً، ومنها سلطة الأشراف وكان زعيمهم (يدعى شيخ السادات وهو رجل ذو سلطة ونفوذ عظيمين)[٤].

ولابد أن ينتج عن هذه الحالة فوضى عارمة وتصبح القوة معياراً رئيسياً والقانون السائد، وتتقاطع السلطات المختلفة وتتعارض مصالحها، وتصل

(١) السابق نفسه.

(٢) جاء في القاموس العثماني الشرح التالي :**الصُرّة**:.كيس النقود. أطلقت زمن الدولة العثمانية على النقود والعطايا والهدايا المقدمة من السلطان العثماني في استانبول إلى الحرمين الشريفين.
شمس الدين سامي، قاموس تركي، در سعادت، إقدام مطبعة سي ١٣١٧هـ ص٨٢٦.

(٣) السابق نفسه.

(٤) السابق نفسه.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

في بعض الحالات إلى نقطة الصدام، فتنشأ المنازعات وتتحول إلى صراعات وقتال، ويمتدّ هذا إلى فئات السكان المختلفة فنجد (سكان الضواحي وأهل المدينة والمزارعين يتنازعون مع بعضهم لأشهر عدة، فكانت تنشب داخل المدينة نفسها صراعات دموية بين سكان الأحياء المختلفة، فكانوا يسدون الطرقات أحياناً بمتاريس ويطلقون النار على بعضهم بعضاً من على سطوح منازلهم، وتُروى أحداث عن أناس قاموا بإطلاق النار داخل المسجد حتى على أعدائهم بينما كانوا يصلون)[١].

لا شك أن هذا الفلتان الأمني مرشح لأسوء توقعات الفوضى وانعدام الأمن وضياع الحقوق والشعور الدائم بالتهديد، وهذا ما حدث، فقد أصبح لزاماً على كل فرد أن يحمي نفسه وأن يقتني سلاحاً ويستصحبه معه دائماً، ثم تحولت هذه الحاجة لما طال أمدها إلى عرف اجتماعي وجزء من مظاهر الشخصية المدينية، وصار الناس (يتسلحون دائماً بالجنبيّة أو الخنجر العربي المعقوف)، وكل شخص من أعلى مرتبة إلى أسفلها يحمل في يده عصا طويلة ثقيلة، فالثري قد توجت عصاه بالفضة، ويثبت آخرون رزة أو مسماراً حديدياً ضخماً عليها)[٢].

وطبيعي أن تؤدي هذه الحالة إلى عجز الإدارة المدنية عن أن تقوم بواجباتها، وأن يفقد كبار المسؤولين قدرتهم على ضبط الأمور، فشيخ الحرم والملقب أيضاً آغا الحرم هو رأس السلطة المدنية يليه القاضي الذي تعينه القسطنطينية أصبحا كما يقول بيركهارت (مجرد صفرين لا شأن لهما)[٣].

---

(١) السابق نفسه.

(٢) السابق نفسه.

(٣) انظر: الرحلة ٣٢٦.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وانحصرت سلطة شيخ الحرم في حدود المسجد النبوي وموظفيه وخدمه، وفقدت الإدارة المدنية قدرتها على ضبط الأسواق ووقف الاحتكار والحيلولة دون ارتفاع الأسعار، وهذا ما كان يقوم به (المحتسب) الذي لم تعد له سلطة، وفقد السيطرة على الأسواق، فظهر الجشع والاستغلال والتلاعب بالأسعار والاحتكار[١].

في هذه الحالة من الاضطراب والفوضى والفساد ظهر شخص مغامر استطاع أن يمسك حبال السلطة ويصبح سيداً مطلقاً وطاغية، ويحيط نفسه بحرس خاص من رعاع المدينة والبدو والمغاربة و (يمارس أشد الأعمال إثماً وفظاعة وظلماً، فكان يقمع الحجاج وينتزع المال منهم، ويستولي على أملاك كل الحجاج والأجانب الذين يموتون ... ويوقف الصرة فيجمع ثروة طائلة، وقد سُجِّلتْ أحداث عن الاستبداد والطغيان والعنف التي صبغت اسمه بالعار، منها: أن أرملة مسنة ثرية قد وصلت مع ابنتها إلى المدينة من القسطنطينية فقام بالقبض عليها، وأرغمها على الزواج منه، وبعد يومين وجدت ميتة فاستولى على أملاكها، وبعد وقت قصير أجبر الابنة على الخضوع والاستسلام على معانقاته)[٢].

وبلغ طغيان حسن قلعي ذروته عندما حاصرت القوات السعودية المدينة حيث قام (العرب الذين يعملون في خدمته ينهبون المتاجر ليلاً وهم يقومون بدوريات في الشوارع في مجموعات كبيرة)[٣].

التحولات السياسية من العثمانيين إلى السعوديين:

دخل بيركهارت الحجاز بعد استيلاء قوات محمد علي باشا على

(١)انظر: الرحلة ٣١٤.

(٢)انظر: الرحلة ٣٢٧.

(٣) السابق نفسه.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المنطقة، وسافر إليه في الطائف، وكانت فراسة محمد علي قوية حين لقيه وشك في أن يكون جاسوساً لبريطانيا، وهو كذلك، غير أن طبيبه الأرمني - كما أسلفت - أنقذه وحصل له على معونة مالية وخطاب أمان، ولما وصل إلى المدينة كانت الأمور قد استتبت فيها لسلطة محمد علي باشا، وكان كل شيء في هذه السلطة يوحي بعودة النظام العثماني، فقد كان محمد علي يحارب باسمهم ويرسل القادة السعوديين الذي يقبض عليهم إلى القسطنطينية، وكانت رواتب شيخ الحرم وكبار الموظفين في المدينة تأتي منها، فضلاً عن عودة المحمل والصرة وسائر المظاهر التي كانت قبل دخول السعوديين مثلما كانت عليه من قبل.

ورغم أن بيركهارت لم يشهد المدينة في العهد السعودي فإننا نجد في رحلته معلومات متناثرة عن قضايا سياسية واقتصادية في ذلك العهد، ففي سياق حديثه عن الفلتان الأمني في المدينة قبل العهد السعودي وخوف الناس وتسلحهم دائماً بالخنجر العربي المعقوف يبين أن هذا الأمر كان (قبل الاحتلال الوهابي)[1]، وهذا يعني أن الناس في المدينة نعموا بالأمن والطمأنينة في العهد السعودي، وأن الشجارات قد توقفت أو خفت إلى حد كبير.

كما يشير إلى استتباب الأمن في طرق القوافل بسبب دخول عدد من قبائل حرب في العقيدة الوهابية وكفّهم عن التعرض للحجاج والمسافرين[2].

ويذكر بيركهارت السلوك الرصين للدولة السعودية مع التنظيمات السائدة في العهد العثماني رغم عدم موافقتهم عليها، ومنها موقفهم من

(١)الرحلة ٣١١.

(٢)انظر الرحلة ٢٤١.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

شيخ الحرم النبوي الذي كانت ترسله القسطنطينية ولم يكن عربياً ولا يحسن العربية وكان أحد الشخصيات المتنفذة بالمدينة[١] وقد ألغى السعوديون هذا النفوذ مثلما ألغوا المميزات غير المنطقية الأخرى، ولكنهم عاملوا شيخ الحرم باحترام كبير، وعندما آثر الخروج من المدينة مع بعض الأغوات لم يعترضوه بشيء، يقول بيركهارت (كان الوهابيون يحترمون شخص شيخ الإسلام، فحين استولى سعود على المدينة سمح للشيخ مع عدة خصيان آخرين بالانسحاب إلى ينبع مع نسائه وأمتعته وأغراضه الثمينة كلها[٢]).

وطبيعي أن يفقد أغوات الحرم نفوذهم في ظل الدولة السعودية بعد رحيل رئيسهم وأن يبقوا في حدود أعمالهم الأصلية التي وظفوا فيها وهي خدمة المسجد النبوي والقيام على شؤونه.

ولما انتهى العهد السعودي واستولى طوسون باشا ابن محمد علي باشا على المدينة أرسل السلطان العثماني شيخاً جديداً للحرم، وكان (يأخذ الأسبقية على طوسون باشا وكان هذا الأخير كلما التقيا يقبل يد الشيخ كما رأيته يفعل في المسجد) [٣]، ويبدو أن هذه المكانة دينية وشرفية محضة، وأن (نفوذه على شؤون المدينة الداخلية قد قُلِّص وهُمِّش إلى مجرد ظل لما كان عليه) [٤]. ولا شك أن نظام الحكم لدى محمد علي باشا وابنه لا يسمح بظهور مراكز قوى أخرى تقتطع شيئاً من نفوذهم، كما أن طبيعة المرحلة العسكرية آنئذ ستحول دون عودة نفوذ شيخ الحرم ورجاله

(١)انظر الرحلة ٢٨٧.

(٢) السابق نفسه.

(٣)الرحلة ٢٨٦.

(٤)انظر: الرحلة ٢٨٧.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقت زيارة بيركهارت للمدينة.

كان الحسينيون (الفرع المنحدر من سلالة الحسين بن علي رضي الله عنهما) أمراء المدينة منذ القرن الرابع الهجري، وكان أبناء عمومتهم الحسنيون المنحدرون من سلالة الحسن بن علي رضي الله عنهما أمراء مكة وينبع، وقد قامت بين الإمارتين علاقات طيبة تتخللها بعض الاضطرابات والمصادمات في القرون الأخيرة.

وفي مطلع القرن العاشر الهجري وتحديداً في عام ٩٠١هـ نهب أمير المدينة آنئذ حسن الزبيري مقتنيات الحجرة النبوية، وروّع أهل المدينة ثم فرّ إلى البادية، فاجتمع أعيان المدينة وكبار مسؤوليها وكتبوا محضراً للسلطان الأشرف قايتباي في مصر ـ وكانت الحجاز تابعة له ـ يطلبون أن توضع إمارة المدينة تحت إشراف أمير مكة الشريف محمد بن بركات فجاء مرسوم السلطان بذلك، وبأن يُعَيِّنَ الشريفُ من ينوب عنه في إدارة شؤون المدينة، ومنذ ذلك الحين تحول لقب أمير المدينة إلى لقب نائب أمير مكة[1].

وعندما توفي الشريف محمد بن بركات حدث نزاع بين أبنائه شغلهم عن أمور المدينة فعاد إليها أمراؤها إلى أن استتب الأمر للشريف بركات بن محمد بن بركات عام ٩١٩هـ فأرسل السلطان المملوكي قانصوه الغوري رسولاً يعهد إليه تعيين أمير المدينة على أن يستشير شيخ الحرم النبوي والقضاة، فكان هذا المرسوم نهاية حاسمة للنفوذ الحقيقي لأمراء المدينة الحسينيين.

وعندما استولى العثمانيون على مصر أرسل الشريف بركات وفداً إلى

(١) انظر: وفاء الوفا ٥٩٠/٢، والتحفة اللطيفة ٤٧٩/١، والتاريخ الشامل ٣٢٦/٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

السلطان سليم أعلن فيه تبعية الحجاز للعثمانيين ففرح بذلك السلطان سليم فرحاً عظيماً وأقر الشرفاء في مناصبهم وبقيت المدينة تابعة لهم.

أما أمراء المدينة الحسينيون فقد حافظوا على لقب شريف ولكن نفوذهم تلاشى تدريجياً، وخرج معظمهم إلى أرياف المدينة، وصار الدعاء على منبر المسجد النبوي للسلطان أولاً ثم لشريف مكة ثم لأمير المدينة، وما لبث أن تلاشى الدعاء لهم بعد أن أصبح شيخ الحرم النبوي هو المسؤول المدني عن شؤون المدينة، وغابت أسماء الحسينيين والحسنيين عن أيٍّ من الإدارات أو المسؤوليات المهمة[1].

غير أن بيركهارت يزودنا بمعلومة على جانب من الأهمية تكشف وجود بقايا نفوذ للأشراف الحسنيين أمراء مكة في إمارة المدينة، وهي على ضآلتها مؤشر على حرص العثمانيين على استرضاء شريف مكة والمحافظة على سلطته الاسمية على إقليم الحجاز، وعدم الإقرار للحسينيين بأي سلطة أو منحهم منصباً سيادياً، فقد غابت الأسماء الحسينية عن الوظائف العليا، ولم يعد لهم سوى المخصصات التي ترد في ((الصرة)) في حين أن شريف مكة ظل (يحتفظ بموظف ذي منزلة أدنى ليقبض بعض الرسوم الزهيدة على الخضروات واللحوم والمؤن الأخرى التي تأتي إلى السوق، وهي الضريبة الوحيدة من نوعها التي يدفعها المدينيون، وهي آخر أثر للسلطة التي كان يتمتع بها شريف مكة على المدينة)[2]. ولكننا لا نجد أي أثر لهذه السلطة أو الضريبة في العهد السعودي، بل نجد تطبيقاً لفرض الزكاة على المحاصيل الزراعية، كما سنرى في فصل

(١) انظر: وفاء الوفا ٥٩٠/٢، والتحفة اللطيفة ٤٧٩/١، ماء الموائد ٣١٠/١.

(٢) انظر: الرحلة ٣٢٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

التحولات الاقتصادية .

ويثير بيركهارت إشكالية في التحول السياسي من الإدارة العثمانية إلى الإدارة السعودية وهي استمرارية (حسن القلعي) في منصبه العسكري (آغا القلعة) في ظل الدولة السعودية، خاصة وأن ظلمه وطغيانه بلغا حد الذروة قبيل استلام السعوديين للحكم، فقد أصبح سلوك حسن (أكثر عنفاً فلم يضع حدودا لقمعه وظلمه خلال اليومين أو الثلاثة التي سبقت الاستيلاء على المدينة، وكان أحياناً يحكم بأشد العقوبات على الأشخاص الذين يصادف أن يضحكوا بين أنفسهم خلال مروره، مدعياً أن مشيته المترنحة العرجاء هي سبب ضحكهم، وكان العرب الذين يعملون في خدمته ينهبون له المتاجر ليلاً وهم يقومون بدوريات في الشوارع في مجموعات كبيرة، ولم يكن بالإمكان محاكمتهم)[1].

ويعلل بيركهارت سكوت السعوديين عن حسن القلعي بل وإقراره في منصبه بأنه سلم المدينة للسعوديين بشرط أن يستمر في سيطرته، وأن السعوديين وعدوه بذلك، وتم تنفيذ الوعد[2].

ويبدو لي أن بيركهارت لم يطلع على طريقة تحول المدينة من الدولة العثمانية إلى الدولة السعودية، وأنه بالغ في تصوير سلطة حسن القلعي ودوره في تسليم المدينة، ويذكر ابن بشر المؤرخ النجدي الذي عاصر الدولة السعودية الأولى أن أتباع الدولة الإصلاحية انتشروا بين القبائل الحجازية يدعونها إلى اتباع هذه الدعوة وترك البدع والخرافات، وأن عدداً من أفخاذ قبيلة حرب بايعت السعوديين، وما لبث أن جاء عدد من أتباع الدعوة

(١) انظر: الرحلة ٣٢٧.

(٢) السابق نفسه.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الحرمين ونزلوا في العوالي وبنوا حصناً طينياً كبيراً، وبدأوا ينشرون الدعوة في أهالي العوالي وقباء وبقية الضواحي، وبدأ هؤلاء في حصار المدينة ودعوة أهلها للتسليم وتطهير المدينة من البدع، وامتد الحصار عدة أشهر ودون قتال، واستنفر العسكر الموجودون في المدينة وتأهبوا للمقاومة ونصبوا المدافع على الأبراج، ونشط حسن القلعي باعتباره آغا القلعة ورئيس أهم فرقة عسكرية في المدينة للمقاومة، ووردت أخبار متواترة عن انتصارات الجيش السعودي بقيادة عثمان المضايفي في الطائف ومكة وبعض مناطق الحجاز الأخرى، وعن عزم المضايفي التوجه إلى المدينة، فاجتمع أعيان المدينة وقادة الفرق وشيخ الحرم والقضاة، وبعد مناقشات طويلة استقر رأي الجميع على مكاتبة الأمير سعود لمبايعته وطلب الأمان للمدينة وأهلها، وكتب الجميع رسالة وقعها شيخ الحرم والقضاة وعدد من الأعيان بينهم أحمد الطيار وقائد فرقة النوبتجية وحسن قلعي قائد فرقة القلعة، وخرج وفد صغير إلى الدرعية وقابل الأمير سعود الذي رحب بهم وأكرمهم، وقبل مبايعتهم، وأعطاهم الأمان، واشترط عليهم تطهير المدينة من مظاهر الشرك والبدع ولا سيما القباب على القبور، فقبل الوفد ذلك وعادوا بخطاب الأمان إلى المدينة، وأرسل الأمير سعود إلى أتباعه المحاصرين المدينة بتأمينها ودخولها سلماً[1]، وفي ربيع الأول عام ١٢٢٠هـ بدأ تنفيذ هذا الاتفاق، ففتحت المدينة أبوابها وخرج شيخ الحرم والقضاة والأعيان لاستقبال قادة السعوديين وعلى رأسهم مسعود بن مضيان، وكان لقاء السلم والمصالحة، وصلى الجميع في المسجد النبوي، وهدمت بعد ذلك القباب وعين مسعود بن مضيان أميرا على المدينة، وأَقَرَّ جميع الموظفين في وظائفهم إلا من شاء أن يترك،

(١) انظر: عنوان المجد في تاريخ نجد ٢٨٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وأظهر – كما قدمنا - احتراماً كبيراً لشيخ الحرم، الذي طلب أن يغادر عائداً إلى استانبول، فسمح له بالخروج ومعه جميع حاشيته وأمواله والهدايا التي كانت ترد إليه من جهات كثيرة، وقام أغوات الحرم باختيار واحد منهم ليكون رئيسا لهم ولم يعترض السعوديون على ذلك، وظل هؤلاء يمارسون أعمالهم في المسجد النبوي، ولكنهم فقدوا نفوذهم الذي كانوا يمارسونه من قبل في الإدارات المدنية[١].

وأما حسن قلعي فقد كان نموذجاً صارخاً لسياسة (الميكافيلية) ويمكن أن نسميها: الوصولية، فقد تحول من قائد يستعد لقتال السعوديين إلى مناصر قوي لدعوتهم كما يبين بيركهارت (وبما أنه بات الآن عاجزاً عن التصرف بالظلم نفسه كالسابق فقد أظهر حماسة شديدة للدين الجديد، [كذا] وقمع السكان بأن فرض عليهم بصرامة شديدة الدقة تعاليم العقيدة الوهابية وشعائرها)[٢].

وقد كانت سياسة السعوديين بعد دخولهم المدينة إبقاء قادة الفرق العسكرية المحلية في مناصبهم ما داموا قد بايعوهم، وبعد إزالة القباب من على القبور والتي نتوقع أن يكون حسن قلعي شارك فيها بحماسة ليظهر إخلاصه للسعوديين انسحب معظم أتباع الدولة السعودية إلى أطراف المدينة، وأقام عدد كبير منهم في الحصن الطيني بالعوالي.

وغادر القادمون من نجد إلى ديارهم أو التحقوا بإخوانهم الذين ينشرون الدعوة في مناطق أخرى، وبقيت قلّة منهم مع أمير المدينة مسعود بن مضيان الذي طبّق تعليمات الأمير سعود بن عبدالعزيز في تأمين المدينة، وفي ظني أن المعلومات التي تلقاها بيركهارت عن شخصية حسن قلعي لا تخلو من

(١) انظر: التاريخ الشامل ٤٣٠/٢ -٤٣٦.

(٢) انظر: الرحلة ٣٢٧.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المبالغة، فلم يكن الشخص الوحيد الممسك بالسلطة في المدينة، ولم يكن القائد الأعلى، بل كان واحداً من قادة ثلاث فرق عسكرية، ولكنّ حالة الفوضى والفساد منحته الفرصة ليكون أكثرهم تسلّطاً وفساداً، وكان بينه وبين قائد النوبتجية منافسة تصل إلى حدّ صراع الأتباع والاقتتال أحياناً، ولكن هذا الصراع ما يلبث أن يزول ليستمر كل منهما في تحقيق مصالحه، والذي نستشفّه من وصف بيركهارت أن السعوديين لم يسمحوا باستمرار الفساد والظلم، وأنهم ألغوا نفوذ مراكز القوى السابقة العسكرية منها والمدنية، وأن استمرار حسن قلعي كان بسبب جهوده في خدمة الدولة الجديدة ووفق قواعدها.

وقد وقع بيركهارت في خطأ كان من المفروض أن تنقذه منه دراسته للشريعة الإسلامية، هذا الخطأ هو عدم فهمه لفرضية الزكاة التي طبقها السعوديون في المدينة، وكان حسن قلعي أحد المساعدين على تطبيقها، ففي العهد العثماني لم يكن للدولة علاقة بجباية الزكاة، وكانت عملاً فردياً يقوم به الأفراد بطريقتهم الخاصة، ولما قامت الدولة السعودية الأولى كان من بين أنظمتها تطبيق جباية الزكاة وتوزيعها في مصاريفها المقررة شرعاً، ومن أبرز ميادين هذا التطبيق المزارع التي ينبغي أن يخرج أصحابها زكاة محصولهم، وعندما تولّى مسعود بن مضيان إمارة المدينة وجه لتطبيق جباية الزكاة من المزارع، وأهمّها مزارع النخيل والقمح والشعير وبقية الغلال التي تجب فيها الزكاة، وقد فهم بيركهارت أن هذه الزكاة نوع من الضرائب فرضته الدولة السعودية على السكان لصالح (زعيم الوهابيين)، واتّهم حسن قلعي بأنه طبقها (مع جابي ضرائب سعود

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بالطريقة الأشد قسوة وصرامة) [١].

والغريب أن بيركهارت استخدم في أول هذا النص مصطلح (الزكاة) للتعبير عمّا سمّاه هنا (الضريبة) فقال: (كان السكان معفيين من الزكاة التي كان يدفعها الوهابيّون الآخرون للزعيم) [٢].

ولو عاد إلى المعلومات التي درسها في بريطانيا وسورية عن الإسلام لأدرك أن جباية الزكاة كانت واحدة من نظم الدولة الأساسية منذ العهد النبوي إلى فترة من العهد العباسي، وأنه من الطبيعي أن يقوم السعوديون بتطبيقها ماداموا يطبقون نظم الشريعة الإسلامية بحرص كبير.

ورغم ثناء بيركهارت على آثار التحولات السياسية أمنياً وإدارياً بشكل عام في العهد السعودي القصير، إلا أن تتبّعه لقصة حسن قلعي كما سمعها ممن لقيهم شغله عن تتبّع التفصيلات الأخرى في ذلك العهد، وكل ما تستنتجه من إشاراته العابرة أن المدينة تحولت علاقاتها إلى نجد بالكلية، وأن المحمل انقطع عنها في السنة الثانية للحكم السعودي، وقلّ عدد زوار المدينة، وتأثرت الحياة العامة في المدينة، ونجد إشارة واحدة إلى المرحلة الأخيرة من الحكم السعودي حينما بدأ خطر جيوش محمد علي يهدد المدينة فاشتغل السعوديون بتحصين المدينة، وخاصة السور الذي يحمي القسم الأكبر من بيوتها؛ حيث (أحيط بخندق من صنع الوهابيين تم ملؤه بالمياه في أماكن عدة تقريباً، وتمّ ترميم الجدار (السور) بشكل كامل، وهو يشكل في شبه الجزيرة دفاعاً مهمّاً جدّاً) [٣].

(١)انظر: الرحلة ٣٢٧.

(٢) السابق نفسه.

(٣) انظر: الرحلة ١٧٠.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وهذه معلومة نادرة لم أجدها في المصادر الأخرى التي تحدثت عن معركة الاستيلاء على المدينة عام ١٢٢٧هـ.

فابن بشر الذي وصف المعركة، وأورد تفصيلات عن الحصار لم يشر إلى الخندق، ولولا أن بيركهارت ذكر في سياق حديثه عن المدينة أنه رأى بقايا الخندق في الأجزاء التي لم تردم لشككنا في صحة الرواية[1].

من أهمّ مظاهر التحولات السياسية في العهد السعودي تغيّر نظام الحكم تغيّراً شبه كامل؛ فقد كان الحكم كما أسلفت موزعًا من الإدارة العسكرية التي يديرها آغا المدينة كما يسميه بيركهارت وهو حسن قلعي وتنتظم تحت قيادته قوات الحامية العسكرية المتمركزة في القلعة، وآغا الحرم وهو شيخ الحرم الذي يرأس الإدارات المدنية جميعها، ومراكز القوى التي ظهرت بسبب الفوضى والفساد وأهمّها زعماء الأحياء وطبقة الأغوات في المسجد النبوي ونقيب الأشراف وبعض أعوانه من السلالة الهاشمية.

وقد أشرت من قبل إلى خطأ المعلومات التي اعتمدها بيركهارت بخصوص حسن قلعي وتفرده بالسلطة بسبب وجود فرقتين عسكريتين أخريين هما فرقة النوبتجية التي يرأسها أحمد آغا وكانت منافسة لفرقة القلعجية، وفرقة السباهية أو الفرسان، وكانت على ما يبدو أقلّ شأناً ونفوذاً، وربما كان قوة شخصية حسن قلعي وطغيانه وأحداث البطش التي رويت عنه قد غطّت على أعمال الآخرين فلم تبلغ بيركهارت الذي لم يعاصرها وإنما سمع بها وكان على مسافة عشر سنوات منها .. رغم ذلك

(١) انظر: عنوان المجد في تاريخ نجد ط٤ ص٣٢٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فإن الهيكل العثماني للسلطة قد تغير في العهد السعودي، فقد(حلَّت الحاميةُ السلفية في القلعة) [١].

وهذا يعني أن فرقة القلعجية المكوّنة من خليط من الأتراك أو أبنائهم والبدو وبعض أهل المدينة قد انتهى وجودها العسكري، وأن القوات السعودية هي التي أقامت في القلعة، ولا نجد ذِكرًا للفرق الأخرى التي لابدّ أنها لقيت المصير نفسه، فالمرابطون كما يسميهم -ابن بشر - هم الذين أصبحوا القوة الحاكمة والمدافعة عن المدينة، وآغا الحرم الذي احترم السعوديون مكانته الدينية أحسّ أنه لن يكون له نفوذ، ولا حتى القدر الذي أبقاه له العسكريون سابقاً من النفوذ، آثر الخروج من المدينة والعودة إلى استانبول، ولم تستقبل المدينة شيخاً للحرم بديلاً عنه، والشيخ الذي انتخبه الأغوات من بينهم انحصر نفوذه في موظفي المسجد النبوي وخدمه، أما حسن قلعي فالراجح أنه أصبح مسؤولاً عسكريا محدود السلطة تحت إمرة مسعود بن مضيان الذي عينه الأمير سعود بن عبد العزيز أميراً على المدينة، وأصبح عمله كما توحي عبارات بيركهارت أقرب إلى أعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع شيء من الشدة المتصف بها أصلاً، ويصفه بيركهارت بقوله: (وأصبح غير قادر على اقتراف نفس المظالم التي كان يأتيها من قبل، وقد تظاهر بالحماسة الفائقة للعقيدة السلفية، وقام بالضغط على السكان، واستخدم أكثر الأساليب قسوة لفرض مبادئ العقيدة السلفية) [٢].

ومما يدفعني للاعتقاد بأن بيركهارت بالغ في تصويره وأخذته

(١) السابق ٣٦.

(٢) انظر: الرحلة ٣٦١.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الحماسة في تتبّع هذه الشخصية التي كرهها وصوّرها بأبشع صورة، فلا يمكن للسلفيين الذين دخلوا المدينة صلحاً وأمّنوا أهلها، ولم يغيّروا في طبيعة حياتهم شيئاً سوى إزالة البدع ومظاهر الشرك كالقباب على القبور وتعظيم الأضرحة والدراويش وحفلات الموالد، لا يمكن أن يطلقوا يد حسن قلعي في (استخدام أكثر الأساليب قسوة لفرض مبادئ العقيدة السلفية)، وقد استمر القلعي -كما مر بنا - مع المرابطين، وشارك في الدفاع عن المدينة ضد جيوش محمد علي، ولقي حتفه جزاء هذا الدفاع.

ويورد بيركهارت صورة لنهاية حسن قلعي تتناسب مع ما يسمه من صفات لطبيعة شخصيته '' الوصولية'' فيجعله منقلباً إلى قوات محمد علي كما انقلب من العثمانيين إلى السعوديين من قبل، يقول: (عندما جهّز محمد علي حملته الأولى على الحجاز كان في المدينة حامية قوية مكوّنة في الأساس من بدو محاربين من نجد والمناطق الجنوبية بقيادة مضيان الذي عيّنه سعود شيخاً لقبيلة حرب، وقد أبدى حسن القلعي حماسة بالغة في المساهمة بكامل جهده، وبعد هزيمة طوسون باشا في الجديدة ثبت في مركزه بالمدينة، ولكن عندما عاد طوسون للمرة الثانية بقوات أكبر توّقع حسن له الانتصار فدخل معه في مفاوضات سرية وتلقى منه وعداً بإبقائه في منصبه على أن يسهل استيلاء القوات العثمانية على المدينة، وعند وصول قوات طوسون باشا إلى بوابات المدينة، انضم حسن إليها وتلقاه أحمد بونابرته القائد التركي بأوسمة التشريف ووقعت اتفاقية استسلام القلعة لكن بعد إخماد الجماعة السلفية تماماً في هذه الأنحاء فإن كلاً من مضيان الذي وُعد بالأمان وحسن القلعي قد قبض عليهما، ووضعا في

القيود، وأرسلا عن طريق القاهرة إلى استانبول حيث لاقيا منيّتهما)[١].

يشير ابن بشر إلى خيانة بعض أهل المدنية وتواطئهم مع جيش محمد علي وفتحهم الباب الشرقي لمجموعة من الجنود دخلوا على المقاومين وفاجؤوهم، وجعلوهم بعد تفجير السور عند الباب الشمالي بين فكي كماشة، لكنه لا يذكر حسن القلعي ضمن المتواطئين، ويقرنه بمسعود بن مضيان في دوره القيادي وانتقام العثمانيين منه حيث(أمسك الروم حسن قلعي وعذبوه بأنواع العذاب وبعثوه إلى مصر)[٢] ولو كان حسن القلعي من ضمن المتواطئين، أو على النحو الذي ذكره بيركهارت من انضمامه إلى أحمد بونابرته لما غاب عن المؤلفين السلفيين الذين عاصروا تلك الأحداث وكتبوا عنها، والراجح عندي أن القلعي أخلص في انضمامه إلى السعوديين ودفاعه عن المدينة معهم مادمنا لا نملك دليلاً على ما ذكره بيركهارت، ولا نجد في كتابات أحد من معاصريه ما يؤيده.

التحولات السياسية بعد العهد السعودي:

عندما دخل بيركهارت المدينة كانت قد تحولت إلى السلطة العثمانية واستقرت الأمور إلى حد كبير، وصارت مركزاً لانطلاق حملة محمد علي باشا على نجد لمحاربة الدولة السعودية الأولى، وكانت الإدارة لطوسون باشا الذي عُيِّنَ حاكماً للحجاز واهتمّ بالتعبئة العسكرية وتسيير الحملات إلى نجد، وقد توافق وصول بيركهارت للمدينة مع وجود طوسون باشا فيها، ولكنه لا يذكر أنه التقاه، ويبدو من وصفه له إعجابه به رغم غمزه بمستوى ذكائه وبعض تصرفاته الغبية، يقول عن إدارته: (لم يكن حكم

(١)انظر: الرحلة ٣٦٢.

(٢)انظر: الرحلة ٣٢٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

طوسون سيئاً، ذلك أن مقاصده كانت طيبة، وكان محبوباً من السكان لكرمه وتقواه)[١] ويتحدث في موضع آخر عن صفاته التي أعجب بها فيذكر أنه أكثر أفراد عائلته صدقاً وتديناً، وأنه كان يجالس العلماء في المسجد النبوي ويحضر بعض دروسهم[٢]، ويعرض صورة غير عادية لتقواه وبره بوالدته، فعندما حضرت إلى المدينة أمر أن تفرش له سجادة عند باب البيت الذي نزلت فيه ونام عليها تعظيماً لقدرها[٣]، ولكنه لا يتردد في أن يغمز في بعض تصرفاته السياسية ويصفها بأنها (كانت تتسم بقدر كاف من الغباء، فقد أرعب البدو بالاستيلاء على جمالهم، وبذلك قطع الإمدادات عن المدينة، وخلق أزمة عامة في كل نوع من أنواع المؤن وغيرها من الضروريات، وسرعان ما بدأ جنوده يرتكبون الحماقات التي تجاهل أن يعاقبهم عليها)[٤]، وكانت حاجة طوسون باشا لنقل الجنود والذخائر العسكرية وسائر الإمدادات التي تصل من مصر إلى ميناء ينبع شديدة إلى الجمال والجمالين، فلجأ في بعض الحالات التي تكدس فيها الجنود والمؤن في ينبع إلى إرسال جنوده لمصادرة الجمال من المدينة وأطرافها، فقام المزارعون ومربو الماشية في المدينة ببيع جمالهم، وهرب البدو الذين كانوا يرتزقون من نقل الأشخاص والبضائع بجمالهم إلى قلب الصحراء، وقد أدرك محمد علي باشا خطأ ابنه طوسون عندما قدم إلى المدينة (وسرعان ما اتخذ الإجراءات الصحيحة بحكمته المحنكة لإصلاح الأخطاء التي

(١)انظر: الرحلة ٣٦٢.

(٢)انظر: الرحلة ٣٢٠.

(٣)انظر: الرحلة ٣٢٢.

(٤) انظر: الرحلة٣٦٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كان ابنه وقع فيها)[١] فدفع الأموال المجزية لأصحاب الإبل فعادوا إلى المدينة وعادت معهم السلع والبضائع وحركة نقل الإمدادات العسكرية والجنود إلى نجد.

ومن التحولات السياسة الجديدة بعد العهد السعودي عودة الهيكل الحكومي الذي ألغاه السعوديون وعلى رأسهم شيخ الحرم الذي يعينه السلطان العثماني، وكانت له فرقة عسكرية خاصة به يقدرها بيركهارت بين الستين والثمانين رجلاً (وهم جماعة مسلحة مكونة من عناصر مختلفة من الترك والعرب والمغربيين وأهل المدينة)[٢].

وكانت السلطات المتبقية له تنحصر في الأعمال الدينية والمالية التي تخص المسجد النبوي، وكان توقير طوسون باشا له وتقبيله يده كلما التقاه يعيد له هيبته الدينية في المدينة، ويتبع ذلك عودة قدر محدد من نفوذه في الإدارات المدنية أقله أن تستجاب شفاعاته وطلباته الخاصة، أما النفوذ الذي كان عليه من يشغل منصبه قبل العهد السعودي والذي يجعله واحداً من مراكز القوى المهمة في المدينة فلم يكن الحكم العسكري وظروف حشد الإمكانات لحرب السعوديين في نجد ليتيحا الفرصة لذلك، فضلاً عن أن تنامي نفوذ شيخ الحرم آنئذ كان بسبب ظروف الفوضى وعجز الإدارة المركزية عن التدخل، وهذا مالم يكن موجوداً في عهد طوسون باشا.

ويشير بيركهارت إلى عودة (الأهمية) لكل من القاضي الذي أرسلته استانبول ثانية والذي يعدّ موازياً في أهميته لشيخ الحرم آنئذ، ثم شيخ

(١) السابق نفسه.

(٢)انظر: الرحلة ٣٢٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الأشراف أو السادات فضلاً عن عدة شيوخ آخرين يقول بيركهارت إنهم يحظون بتقدير واحترام كبيرين، وفرق بين التقدير والاحترام وبين النفوذ والسلطة، فالحالة الأولى مشاعر في نفوس الناس والموظفين، والحالة الثانية سيطرة وتدخل في شؤون الإدارات، والتحول الذي حدث في عهد طوسون باشا هو الحالة الأولى ليس أكثر؛ لأن السعوديين جردوا شيخ الحرم والقاضي المرسل من استانبول من نفوذهما أولاً، ثم خرجا أو أخرج أحدهما وخرج الآخر طواعية، ولم يعد لهما أثر في الحياة العامة، وطبيعة المفاهيم السلفية التي سار عليها السعوديون لا تمنح القاضي أو المسؤول عن الحرم أكثر من حجم وظيفته، والقضاة الذين أرسلهم الأمير سعود كانوا من شيوخ نجد ومن الواعظين والعازفين عن المكاسب الدنيوية وما يحققه النفوذ والسلطة[1] لذا فعودة الأهمية للقاضي وشيخ الحرم وشيخ الأشراف وبعض الشيوخ فيه قدر جيد من التحول والتغير ولو أنه لم يبلغ ما كان عليه في مرحلة ما قبل العهد السعودي.

إضافة إلى هؤلاء الأشخاص يتردد بيركهارت في إقرار وجود سلطة أو سيطرة اسمية لشريف مكة الشريف غالب في المدينة، باعتباره أمير الحجاز عامة يقول: (ولا يتمتع الشريف غالب هنا بأيّ سلطة كانت، ولكنني أعتقد ـ وإن لم أكن واثقاً ـ أنه ما يزال يتمتع بالسيطرة الاسمية أو بلقب زعيم المدينة، وأن المدينة كانت تشكل بالنسبة إلى الباب العالي جزءاً من الحجاز تحت قيادة شريف مكة)[2].

وثمة قضية يشير إليها بيركهارت وكانت واحدة من المطاعن على

(١)انظر: عنوان المجد في تاريخ نجد، ص ٢٨٨.

(٢) السابق٣٢٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

جيش محمد علي وإدارته هي استعانته بغير المسلمين[١] واعتماده عليهم ليس في المهمات العسكرية وحسب بل في الإدارة، فيذكر بيركهارت أن طوسون باشا أوكل إدارة المدينة عندما سافر إلى مصر إلى رجل اسكتلندي يدعى توماس كيت أو إبراهيم آغا الذي كان أمين صندوقه[٢].

ثانياً: الحياة الاقتصادية

تحدث بيركهارت عن الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة في فصل كبير بعنوان (وصف المدينة)، حيث وصف بنيتها العمرانية وشوارعها وأسوارها وأحواشها، ثم عرج على مواردها الاقتصادية ومزارعها والنشاط التجاري والصناعي والموارد (الدينية) التي تتدفق من مخصصات المسجد النبوي والصرة وعوائد الأوقاف، كما أنه سجل ملاحظات عن جوانب اقتصادية أثناء حديثه عن العمران والسكان والمسجد النبوي والحكومة، وكان دقيقاً في ملاحظاته، وبارعاً في استنتاجاته، ومنهجياً في تقويمه، ولاذعاً في نقده.

والحق أنه من النادر جداً أن يجد المرء في كتابات الرحالة دراسة تفصيلية معمقة على هذا النحو، ولقد شعرت وأنا أتابع وصفه وتحليلاته واستنتاجاته أنني أمام باحث منهجي يكتب دراسة أنفق في البحث عن تفصيلاتها شهوراً طويلة، وقام بعمل ميداني مجهد وإحصاءات غير قليلة.

---

(١) يقول المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي عن جيش محمد علي نقلاً عن بعض قادته: (وأكثر عساكرنا على غير الملة، وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهباً، وصَحبتْنا صناديقُ المسكرات، ولا يُسمع في عرضينا أذان ولا تقام به فريضة، ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين).

تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٣٤١/٣، دار الجيل، بيروت،

(٢) انظر: السابق٣٢٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لقد أخلص بيركهارت للجهة التي ابتعثته، وأثبت أنه قادر على الوصول إلى عمق القضايا ويقدم التقارير الدقيقة المفصلة.

تضمنت كتاباته في الجانب الاقتصادي تقويماً عاماً للحركة الاقتصادية في المدينة وحجم الثروات ومصادرها ولكن دون أن يضع عنواناً لأي من هذه القضايا، وكان يستوفي معظم القضية أحياناً في فقرة واحدة كما في فصل الزراعة، ثم يورد معلومات جديدة عنها خلال حديثه عن موضوع آخر له نوع من الارتباط به، كأن يورد معلومة جديدة عن الزراعة خلال حديثه عن السكان، وسوف أعرض بشيء من التركيز الصورة التي قدمها لكل قضية في فقرة واحدة، وألملم فيها المعلومات المتناثرة هنا وهناك، وأشير إلى ما ذكره من تحولات سببها التغيرات السياسية بين العهدين العثماني والسعودي.

صفات الحياة الاقتصادية:

يصف بيركهارت الحركة الاقتصادية في المدينة بأنها ضعيفة، ويرى أن المدينة ليست مركزاً اقتصادياً مهماً، وليس فيها ثروات كبيرة ولا حركة تجارية نشطة، ويحدد مصادر الدخل الرئيسية بأنها :

١. تملك المزارع والأراضي والعقارات الأخرى، وهذه أعلى درجات الملكيات والثروة.
٢. مخصصات الصرة والرواتب المرسلة من استانبول وعوائد الوقف، وهذه متفاوتة في حجمها بين فئة وأخرى وتتأثر بالظروف السياسية .
٣. الزراعة، وخاصة زراعة النخيل ثم الحبوب والفواكه والخضار.
٤. التجارة، ومواردها متفاوتة بين فئة وأخرى، وبعض التجار هم أكثر أهل المدينة ثراء كعائلة (عبد الشكور).

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

٥. الحرف الصناعية كالحدادة والنجارة والبناء، وهي أقل الأنشطة وجوداً ودخلاً، وكثيراً ما تغيب نهائياً عن سوق المدينة[١].

هذا الوصف لمصادر الدخل العام لا يرتبط بحقبة سياسية معينة، ولكنها تتأثر بالتحولات السياسية بنسب متفاوتة على نحو ما سنراه في الفقرات التالية:

الزراعة:

يقدّم بيركهارت وصفاً دقيقاً للزراعة في المدينة، ويقدّر المساحة المزروعة حول البساتين بمسافة تتراوح بين ستة وثمانية أميال في الجهتين الشرقية والجنوبية، ويُغْفل بساتين الجهة الشمالية التي تمتدّ ما بين المدينة وأحد عبر منطقة العيون[٢]، ولكنّه يذكرها في موقع آخر عرضاً[٣]، وينتقد هذه الزراعة بأنها غير منهجية أو مدروسة بشكل جيد، كما ينتقد استثمار الأراضي لوجود مساحات فارغة بين المزارع لم تستثمر، ولا يجد تفسيراً لذلك سوى سوء التخطيط، يقول: ((يذهب الكثير من الأراضي سدىً، وليس هناك اقتصاد من أيّ نوع في زراعة الأمكنة التي يتمّ فيها تخطيط الحقول، فالعديد من المناطق جرداء قاحلة تماماً))[٤].

لذلك ورغم كثرة المزارع فإن إنتاجها لا يكفي أهل المدينة لأكثر من أربعة شهور، وعليهم الاعتماد على ما تحمله القوافل من جهات أخرى؛ لأن التمر (هو المادة الأولى من الطعام في المدينة)[٥]. ويأتي جزء كبير إلى المدينة

(١) انظر: الرحلة٣١٥ -٣١٦.

(٢)انظر: الرحلة ٢٩٣.

(٣)انظر: الرحلة ٣٠٣.

(٤) انظر: الرحلة ٢٩٤.

(٥)انظر: الرحلة ٣١٥.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من المناطق البعيدة، وخاصة من الفرع .(وهو: واد خصيب تملكه قبيلة بني عامر). ... ومن رابغ[١].

ويُعطى الفلاحون العاملون في المزارع نسبة ٤٠٪، وما يبقى يكون حصة المالك، ويقرّر بيركهارت بأن دخل المالك يتراوح بين ١٢ -١٦٪ من رأسماله، وأن الاستثمار في المزارع لا يقوم به إلا الأغنياء القادرون على شرائها[٢].

ويذكر بيركهارت مواقع التربة الخصبة والتربة المالحة، وتوزع بساتين النخيل وحقول القمح والشعير، وبساتين الفاكهة، ويثني على مزارع منطقة قباء، كما يذكر أنواع التمور التي تنتجها مزارع النخيل، ويصف كلاً منها، ويبيّن مدى جودته، ويسوق بعض القصص والأخبار التي تقترن بها، وبعضها من الأساطير الشعبية، وبعضها من الأحاديث النبوية[٣].

كما يذكر مزارع القمح والشعير والبرسيم[٤]، وبساتين الخضار والفاكهة وما تنتجه[٥]، ويصف التربة الزراعية وكيفية تغلب المزارعين على الملوحة في المناطق التي تظهر فيها؛ وذلك بتجريف الطبقة العليا من التربة، وهذا ما يجعل تلك المزارع منخفضة.

ويتعمق في بحثه في الاستثمار الزراعي فيذكر أن المزارع يملكها غالباً أفراد أثرياء أو مؤسسات دينية وخيرية، ويقصد المزارع الموقوفة على المسجد النبوي والأعمال الخيرية، وأن المزارعين يستأجرونها من الملاّك أو

(١) السابق نفسه.

(٢) السابق نفسه.

(٣) انظر: الرحلة ٢٩٦ -٢٩٧.

(٤) انظر: الرحلة ٢٩٥.

(٥) السابق ٣٠٥.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إدارة المؤسسات الدينية (الأوقاف) لمدة طويلة، كما يذكر وجود وسطاء في بعض الحالات يستأجرون الأرض من الملاّك أو الوقف ثم يؤجرونها للمزارعين[١].

ورغم انتقاده الشديد لقلة الاحتراف في أهل المدينة واتهامهم بالكسل وعدم الرغبة في العمل فإنه يثني على المدنيين لاستفادتهم من جميع أجزاء النخلة، تمرها، ونواة التمر، ولحائها وأوراقها وجذورها وجذوعها الجافة[٢].

كما يحمد لبعض أهل المدينة حرصهم على تمضية أشهر الصيف في المزارع في بيوت خاصة يبنونها داخلها[٣]، ولكنه ينتقد عادتهم في استضافة بعضهم بعضاً في مزارعهم ومغالاتهم في الإنفاق ليظهروا بمظهر الأغنياء أو الكرماء[٤]، ويتحدث عن طبقة الفلاحين العاملين في مزارع النخيل خاصة والذين يطلق عليهم لقب النخاولة، ويذكر خلافهم مع أهل السنة، ومستواهم الاجتماعي[٥].

كما يذكر الضريبة التي فرضها السعوديون على المحاصيل الزراعية وخاصة التمور، وقد أسلفنا أن بيركهارت لم يدرك حقيقة ما حدث، ولم يستعن بثقافته الشرعية؛ ذلك أن المزارعين كانوا (لا يدفعون أيّ نوع من الضرائب، فلم يتمّ فرض أيّ ضريبة على الأرض أو ما يسمى (ميري)، وهي حصانة كانت تتمتع بها الواحات الخصبة كلها في الحجاز كما أعتقد،

(١) انظر: الرحلة ٢٩٤.

(٢) انظر: الرحلة ٢٩٦.

(٣) انظر: الرحلة: ٢٩٤ و٢٧٣.

(٤) انظر: الرحلة ٣٢٠.

(٥) انظر: الرحلة ٣٠٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وذلك قبل غزو الوهابيين، فما أن استولى هؤلاء على المدينة حتى فرضوا ضريبة على الأرض وفق قانونهم، وكانت تحدّد الضريبة على الحقول حسب إنتاجها للتمور وليس للحنطة، إذ أن عدد أشجار النخيل في كل حقل يتعلق بخصوبة التربة، وكذلك الحال بالنسبة لمحصولها من الحبوب، وكان جباة الضرائب الوهابيون يأخذون عن كل كمية من التمر حصة نسبيّة من التمر أو المال، وذلك حسب سعر السوق في ذلك الوقت[١].

إن حقيقة ما حدث هو تطبيق فريضة الزكاة على المحصول على نحو ما كان يحدث في صدر الإسلام.

ويلحق بالزراعة تربية الماشية، ويستعرض بيركهارت أنواع الماشية التي يربيها المدنيون وهي: الخيول والجمال للمواصلات، والأغنام وقليل من الأبقار للحوم، ويقرر أن بعض الذين يملكون الخيول باعوها عندما دخل السعوديون المدينة خوفاً من التجنيد الإجباري للخيّالة، حيث كانوا يبحثون عن الفرسان ليضمّوهم إلى مقاتليهم[٢]، وعندما دخل طوسون باشا المدينة احتاج إلى الجمال لنقل الجنود والمؤن إلى نجد، ولم يحسن التصرف، فهرب البدو الذين يربُّونها إلى الصحراء خوفاً من مصادرتها، ولكن محمد علي باشا طمأنهم، وأصلح غلطة ابنه فعادوا إلى المدينة لتأجيرها[٣].

التجارة:

تتبّع بيركهارت أحوال التجارة في المدينة، وقدم وصفاً دقيقاً لأحوالها العامة ولبعض تفصيلاتها، وعرض أهمّ مشكلاتها وأسباب تلك

(١) انظر: الرحلة ٢٩٤ -٢٩٥.

(٢) انظر: الرحلة ٣٢١.

(٣) انظر: الرحلة ٣١٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المشكلات.

وقد وصف الحركة التجارية بأنها محدودة بشكل عام، لا تقاس بالحركة التجارية في مكة، وليس في المدينة أسواق كبيرة أو تجارة دولية مثل ما في مكة، ويصنفها بأنها تجارة تجزئة، تنحصر في السلع الغذائية (المؤن)، والاحتياجات المنزلية والثياب، ولها مصدران رئيسيان: الأول: القوافل القادمة من ينبع ومصدرها الأصلي مصر غالباً، وتتكوّن كل قافلة من مئة وخمسين جملاً تقريباً، وتصل كل أسبوعين. والمصدر الثاني: قوافل البدو التي تأتي من مضارب القبائل في بادية المدينة، وتتراوح بين خمسة إلى عشرة جمال، وتصل كل خمسة أيام أو ستة، وتحمل منتجاتهم من الزبدة والعسل والغنم والفحم النباتي، وتعود بالحنطة والثياب ومستلزمات البدو الأخرى. وتتأثر التجارة مع البدو بالمعارك التي تنشب بين القبائل أحياناً فتنقطع واردات البادية، وترتفع الأسعار ارتفاعاً فاحشاً، وربما تفقد سلعها من الأسواق. وقد شهد بيركهارت هذه الحالة بنفسه عندما وصل إلى المدينة حيث (لم تكن الزبدة متوفرة في السوق، وكانت الحنطة نادرة ... وما لبثت أن اختفت كلياً من السوق، وفي وقت آخر شح الملح ثم انقطع، وحدث الأمر نفسه بالنسبة للفحم النباتي)[1].

يضاف إلى المصدرين السابقين بعض القوافل العابرة التي تؤمن للمدينة بعض المواد الاستهلاكية والمتطلبات المنزلية.

وبسبب ضعف الحركة التجارية لا يستقر في المدينة تجار كبار، ولا يمنع من هذا من إثراء بعض التجار الموجودين مثل آل عبد الشكور الذين يصفهم بأنهم من أغنى عائلات المدينة. ويحقق العمل في التجارة - على

(١) انظر: الرحلة ٣١٣.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ضعفها ـ نسبة ربح جيدة؛ لأن (أي شخص في الحجاز يتاجر بأموال بسيطة لا يرضى بأقل من خمسين في المئة سنوياً)[١].

ورغم اهتمام بيركهارت بتتبّع الحركة التجارية ورصدها بدقة، فإنه أغفل الحديث عن أسواق المدينة، واكتفى بوصفها أنها ليست كأسواق مكة، ما عدا سوق ثابتة واحدة تحدث عنها بإيجاز، وسوق موسمية ذكرها أثناء حديثه عن مكة. أما السوق الثانية فهي سوق المناخ التي (تكتظ دائماً بالبدو والجمال، كما شيّد هنا العديد من الأكواخ والسقائف في صفوف تباع فيها المؤن، وخاصة الحنطة والتمر والخضار والزبدة)[٢].

وهذا السوق هو سوق المناخة، وفي موقعه نشأ أول سوق للمسلمين في العهد النبوي، واستمر كذلك إلى أن تقلص العمران في المدينة، وبني السور حول الكتلة العمرانية المحيطة بالمسجد النبوي على أطرافه سنة ٣٦٠هـ فصار خارج السور مناخاً للقوافل، والعجيب أن لا يصل بيركهارت إلى المعلومات التاريخية عنه وبين يديه كتاب السمهودي وفاء الوفا الذي تحدث عنه.

وأما السوق الموسمية، فقد ذكر في الفصل الذي وصف فيه مكة وأثناء حديثه عن تجارها أنهم كانوا يعدون في شهر رجب من كل عام قافلة كبيرة (تتألف من عدة مئات من التجار يركبون على الجمال، وكانت تقام في ذلك الوقت سوق موسمية كبيرة في المدينة المنورة يرتادها العديد من البدو في المناطق المحيطة وشعب الحجاز ونجد، وكانت السلع

(١) انظر: الرحلة ٣١٥.

(٢) انظر: الرحلة ٢٧٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

التي تملأ هذه السوق ترسل من مكة بقافلة ضخمة من الجمال التي كانت تنطلق مباشرة بعد التجار، وكانت تدعى ركوب المدينة، وكانت تبقى نحو عشرين يوماً في المدينة ثم تعود إلى مكة)[١].

والمدهش ألا يذكر بيركهارت شيئاً عن هذه السوق في وصفه للمدينة ولا في حديثه في اقتصادياتها، وربما يكون إغفاله الحديث عن الأسواق هو السبب الذي أضاع علينا فرصة التعرف إلى هذه السوق الموسمية الكبيرة، إضافة إلى أن وجود بيركهارت في المدينة لم يكن في الوقت الذي تعقد فيه هذه السوق.

ولعل من أهمّ ما ورد في كتابة بيركهارت عن التجارة في المدينة تقويمه الصائب لمشكلاتها الحقيقية وأهمها: سوء التنظيم، وغياب السلطة عن مراقبتها، وعدم تدخلها لحل الأزمات التي يسببها جشع بعض التجار واحتكارهم للسلع الغذائية، وتلاعبهم بالأسعار فعندما يتأخر وصول القوافل لأسباب أمنية أو غيرها من الأسباب، ويضطر التجار الصغار لبيع ما عندهم يحتكر التجار الكبار السلع في مخازنهم ويرفعون أسعارها أضعافاً مضاعفة[٢]، ولا يحاسبهم أحد على ذلك، بل إن الأسعار تختلف أحياناً من مكان لآخر داخل المدينة، والمحتسب الذي يفترض به أن يراقب الأسواق ويتدخل عند اللزوم لا يملك السلطة التي تمكّنه من التدخل[٣].

وباستثناء الحالة التي تدخل فيها محمد علي باشا بنفسه ليصلح خطأ ابنه طوسون باشا عندما أرعب البدو بمصادرة بعض جمالهم فهربوا إلى البادية، وتعطلت قوافل التجارة، وشحت السلع في الأسواق، وتضاعفت

(١) انظر: الرحلة ١٦٩.

(٢) انظر: الرحلة ٣١٣.

(٣) انظر: الرحلة ٣١٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أسعارها فأعاد محمد علي الطمأنينة للبدو، ودفع لهم مبالغ مجزية فعادت القوافل إلى المدينة، باستثناء هذه الحالة لا يجد بيركهارت أيّ أثر لحكومة المدينة في حلّ أزمات التجارة، أو منع الاحتكار والتلاعب بالأسعار، أو أيّ تدخل لتنظيم التجارة، ويتهم الزعماء بالتواطؤ يقول: ((يمارس العديد من الأشخاص في المدينة المعاملات التجارية الصغيرة التي تختص بالمؤن بشكل أساسي، وهي نادراً ما تكون منتظمة مما يتسبب في تقلّب أسعار المؤن باستمرار.

إن العاقبة الوخيمة لذلك هي أن تجار الحنطة الأثرياء ينجحون أحياناً في الاحتكار بحيث لا تبقى حبة واحدة في غير مخازنهم، بعد أن يضطر التجار الصغار إلى البيع، وكلما تأخرت القوافل بالوصول ارتفع سعر الحنطة بشكل هائل، وبما أن **زعماء المدينة مستفيدون من ذلك فلا يمكن افتراض أي احتمال بتدخل الحكام**[1].

ويربط بيركهارت بين ضعف التجارة في المدينة خاصة والحجاز عامة بعدم وجود مراكز مالية كبيرة تُمَوِّل التجار بالفائدة على النحو السائد في أوربا، ويشير إلى منع الدولة العثمانية التعامل الربوي بناء على تعاليم الشريعة الإسلامية، وهذا في رأيه مما يحد الاستثمار في التجارة ويقصره على المشاركة، وهو الأسلوب الشائع وبأية مبالغ كبيرة أو صغيرة[2].

ومن الواضح أن بيركهارت لم يستوعب الحكمة في منع العمل الربوي في الإسلام، وأن التطبيقات الربوية في أوربا والتي سلكها اليهود وبعض الممولين في الشام ومصر الذين رآهم أو سمع بهم جعلته يربط بين ضعف

(١) انظر: الرحلة ٣١٣.

(٢) السابق ٣١٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

التجارة في الحجاز والتمويل الربوي، ولم ينتبه وهو أسير هذا الفهم الخاطئ إلى ما ذكره عن نشاط التجارة ومستواها الدولي في مكة وجدة رغم عدم وجود التمويل الربوي.

وأخيراً يشير بيركهارت إلى تحول التجارة في العهد السعودي من ينبع إلى نجد، فقد توقفت حركة نقل البضائع من مصر إلى ينبع، وحوّل السعوديون قوافلهم إلى نجد يقول: ((وقد أُعلمتُ أن تجارة نقل المؤن من ينبع قد أوقفت لعدة سنوات بعد غزو الوهابيين للمدينة، الذين رغب زعيمهم سعود في إعطاء الأفضلية إلى أتباعه الخاصين في نجد، وأن المدينة في ذلك الوقت كانت تأتي بزادها كله من نجد ومن حقولها الخاصة))[1].

الصناعة:

(ليس هناك وجود للصناعة)[2] ... هذا ما يقرره بيركهارت عن الصناعة في المدينة بأسلوب لا يخلو من النقد اللاذع، ويشمل في نفيه وجود الصناعة في كافة مستوياتها حتى الورش الحرفية الصغيرة، ويعرض صورة قاتمة لغيابها وغياب حتى الأعمال الحرفية وافتقار المدينة إليها، والعناء الذي يتكبده المدينيون عند احتياجهم لها فيقول: (أما بالنسبة إلى غياب الصناعة فإن المدينة لا تزال أكثر لفتاً للانتباه من مكة، فهي في حاجة حتى لأكثر الحرفيين ضرورة، والقليلون ممن يعيشون هنا هم من الأجانب، ويستقرون هنا لفترة معينة، وهناك مُنَجِّد واحد للأثاث لا غير، وصانع أقفال واحد فقط في المدينة، أما النجارون والبناؤون فنادرون جداً، بحيث أن عليهم المجيء من ينبع لتصليح منزل، وكلما احتاج المسجد إلى

(١) انظر: الرحلة ٣١٤.

(٢) انظر: الرحلة ٢٩٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عمال يتم إرسالهم من القاهرة أو حتى من القسطنطينية كما كانت الحال خلال إقامتي، حين كان بنّاء مُعلّم مشتغلاً في إصلاح سقف البناء، وتزود مصر المدينة بحاجاتها كلها نزولاً إلى أتفه الأغراض والسلع، وحين كنت هنا لم تكن تُصنع حتى جرار المياه الفخارية، منذ بضع سنوات أسس أحد أبناء دمشق صناعة لهذه السلعة الضرورية جداً، ولكنه غادر المدينة فبات السكان مرغمين على الشرب من الجرار نصف المكسورة المتبقية، أو على استيراد غيرها من مكة بكلفة عالية، وليس هناك صبّاغ أو صناعات صوفية، ولا نسيج على النول أو دباغة، ولا أعمال جلدية أو حديدية من أي نوع، وحتى المسامير وحوافر الأحصنة كانت تأتي من مصر وينبع)[١].

لا شك أن هذه الصورة مقلقة لمدينة يقدر بيركهارت عدد سكانها ما بين ستة عشر إلى عشرين ألف نسمة[٢]، ولئن كانت القوافل التجارية قادرة على تأمين احتياجاتهم من الأدوات المنزلية وغيرها من المصنوعات الخفيفة فليس من الممكن أن توفر لهم الخدمات التي يقوم بها الحرفيون، كإصلاح الأبواب والنوافذ والأَسرَّة وغيرها من الأعمال التي تحتاج إلى نجارين وحدادين وبنائين وغير ذلك من الحرف وما يتبعها من منتجات الورش الصغيرة، ومن غير الطبيعي الاعتماد على حرفيين عابرين، يأتون في موسم الحج ويقيمون بعده إلى أن يجمعوا نفقات عودتهم ويتركون وراءهم فراغاً طويلاً إلى الموسم التالي، ومع ذلك يؤكد بيركهارت أن (الصناعيين الوحيدين الذين نجدهم في المدينة هم الحجاج الفقراء المعدمون، خاصة أولئك القادمين من سورية وهم كثر، يسعون عبر العمل الجاهد خلال

(١) انظر: الرحلة ٣١٦.

(٢) انظر: الرحلة ٣٣١.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بضعة أشهر لكسب المال الكافي لتأمين نفقات رحلتهم إلى الديار، وهم يعملون فقط في فترات متقطعة، وتصبح المدينة عند رحيلهم ولفترة طويلة دون أي حرفيين)[١].

والأمر نفسه في تأمين الحطب الذي يجمعه فقراء الحجاج الزنوج من أطراف المدينة، ويوفرون حاجة الناس لهذا الوقود الذي يحتاجه كل بيت، (وإذا صادف عدم وجود أي منهم في المدينة أو كانوا قلة فيها فلا يمكن الحصول على الحطب حتى وإن كان لقاء المال)[٢].

ويفسر بيركهارت هذه الحالة غير الطبيعية بعزوف أهل المدينة عن الأعمال الحرفية، ويربطها بثلاثة أسباب، السبب الأول: الكسل الشديد، والسبب الثاني: الإرث القديم في الجزيرة العربية الذي كان يحتقر الأعمال المهنية ويعدُّ الحرفيين مهما كانوا بارعين في حرفهم طبقة دنيا لا يزاوجونهم ولا يعدون لهم شأناً، خلاف ما هو عليه الحال في مصر والشام[٣]، والسبب الثالث: اعتماد قسم كبير من أهل المدينة على ما يردهم من أموال الصرة وعوائد الأوقاف والتبرعات للمسجد النبوي ولأهل المدينة، لذا فليس ثمة ما يضطرهم للعمل في حرفة معينة لكسب معيشتهم[٤].

ويوجه بيركهارت نقداً لاذعاً لأبناء المدينة الكسالى[٥] و(إلى الآباء

(١) انظر: الرحلة ٣١٧.

(٢) انظر: الرحلة ٣١٨.

(٣) انظر: الرحلة ٣١٧.

(٤) انظر: الرحلة ٣١٥.

(٥) انظر: الرحلة ٢٨٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الذين لا يعملون أبناءهم أية حرفة)[١] بسبب احتقارهم للمهنة، ويقارن هذه النظرة القاصرة بالوضع المالي والاجتماعي للحرفيين في مصر والشام، والذي يرفعهم إلى مصاف التجار، ويجعل العائلات لا تتردد في تزويجهم واحترامهم[٢].

كما يوجه نقداً للحكومة دون أن يذكرها بالاسم، لأن الصناعة لا تتلقى أي نوع من الدعم[٣].

الموارد الدينية:

لم يستخدم بيركهارت هذا المصطلح، ولكنّه عناه في حديثه عن موارد أهل المدينة من أموال الصرة، ومخصصات المسجد النبوي، وصدقات الحجاج، والخدمات التي يؤديها إليهم المزورون والأدلاء، وعوائد الأوقاف المخصصة للفقراء المحتاجين، وأعمال البر الأخرى.

ويَعُدُّ هذا المورد في الدرجة الثانية بعد مورد ملكيات المزارع والعقارات الأخرى، وأما الصُّرَّة فهي الأموال التي ترد كل سنة من القسطنطينية لتوزع على السكان كلهم وتعيش عليها العديد من العائلات كلياً (وتتلقى العائلة ما بين مئة ومئتي جنيه استرليني في السنة من غير أن تقوم بأي واجب كان، ويقول المدينيون إنه دون تلك الصرة ما تلبث المدينة أن تُترك للملاكين والمزارعين، وأن هذا الاعتبار كان بالتأكيد الباعث الأساسي لاستقرارهم هناك)[٤].

وتتضمن أموال الصرة عائدات الأوقاف التي أوقفها السلاطين

(١) انظر: الرحلة ٣١٧.

(٢) السابق نفسه.

(٣) انظر: الرحلة ٣١٦.

(٤) انظر: الرحلة ٣١٦.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والمحسنون للمسجد النبوي وأهل المدينة أغنيائهم وفقرائهم والمجاورين ولأعمال البر في المدينة، كما تشمل المخصصات السنوية التي ترصدها الدولة العثمانية لشيوخ الحرم، وسائر موظفيه حتى الخدم والفراشين العاملين حقيقة في المسجد النبوي، والمسجلين على هذه الوظائف دون أن يعملوا، والتبرعات التي يرسلها أبناء البلاد الرومية والشامية والمصرية مع قافلة المحمل التي تأتي في موسم الحج.

وينتقد بيركهارت هذا المورد، ويرى أن أثره سلبي على أهل المدينة؛ لأنه يجعل الكثيرين منهم يعتمدون عليه كلياً ولا يقومون بأي عمل مفيد، وأصبحوا طبقة من الكسالى المتعطلين.

ويقرر بيركهارت أنه في زمنه يساء توزيع أموال الصُّرَّة، فيأخذها غير المحتاجين في حين يترك الفقراء محرومين معدمين[١].

وأما مخصصات المسجد النبوي - ويدخل بعضها في الصُّرَّة - فتشمل الأموال التي توزع على الفراشين وخدام المسجد، وسلسلة كبيرة من الأدلاء والموظفين، ويضيف بيركهارت إليهم قبيلة صغيرة من الحسينيين اختصوا أنفسهم بالجزء الرئيسي من دخل المسجد، عددهم ضئيل (نحو اثنتي عشرة عائلة فقط يندرجون ضمن صفوف نبلاء المدينة وسكانها الأوفر ثراء ويحتلون حياً بأنفسهم ويجنون الأرباح الطائلة)[٢].

ويوضّح بيركهارت السلبية في هذا المورد بأن وظائف الفراشين تمنح من السلطة العليا في استانبول بوساطات أو رشاوى تقدم لشيخ الحرم[٣]،

(١) انظر: الرحلة ٣١٦.

(٢) انظر: الرحلة ٣٠٨.

(٣) انظر: الرحلة ٢٨٧.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وهي وظائف شرفية لا يقوم صاحبها بأيّ عمل، ويستلم مخصصاتها السنوية التي ترسل من العاصمة، ويضمّ إليهم الأدلاء والمزورين، ويضيف إلى مواردهم عطايا الحجاج وهداياهم، ويرى أنهم لا يقومون بعمل يستحقون عليه ما يأخذونه[١].

ويتحدث عن نوع متميز من الدخل يحققه الأدلاء والفراشون العاملون بالمسجد النبوي بسبب مكانتهم الدينية واحتكاكهم بالحجاج القادمين من الآفاق وخاصة بلاد الروم، فهم يقومون بعمل المزورين، أي يصاحبونهم ويرشدونهم لأماكن الزيارة، ويتلون الأدعية لصالحهم أمام الحجرة النبوية، ويتعهدون لهم بتلاوة الأدعية لهم بعد سفرهم (ومعظم الحجاج الذين يمرون هنا من أي منزلة اجتماعية كانوا يتعرفون بأحد هؤلاء الرجال بواسطة أدلائهم في الأماكن المقدسة، وعند عودتهم إلى الديار غالباً ما يصبح إرسال بعض المال سنوياً قاعدة دينية عندهم فيرسلون اثنين أو ثلاثة سكوين (نقد ذهبي إيطالي وتركي قديم) إلى دليلهم القديم الذي يلتزم شرفياً بتلاوة بعض الأدعية باسم المرسل أمام نافذة الحجرة)[٢].

ويعرض تفصيلات عن الدخل الكبير الذي يحققه الفراشون من حجاج البلاد النائية، وتخصص بعضهم ببلاد معينة يحتكرون التعامل مع حجاجها، ويرسلون مندوبين عنهم كي يرتبطوا بهم وحدهم عند وصولهم إلى المدينة، يقول: (وقد احتكر بعض الفراشين الأساسيين كل المدن والمقاطعات التي يقوم أبناؤها، الذين يمرون عبر المدينة بالتعرف إليهم من خلال مواطنيهم، وينتشر ممثلون آخرون في كل أنحاء الأمبراطورية.. إن

(١) انظر: الرحلة ٣١٦.

(٢) انظر: الرحلة ٢٨٧.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الأرباح التي يجنونها من هذه المهنة كبيرة جداً ... فقد سمعت أن بعض الفراشين الرئيسيين له نحو أربعمائة إلى خمسمائة من زبائنه المراسلين له منتشرين في كل أنحاء تركيا، ويتلقون من كل منهم رواتب سنوية يبلغ أدناها سكوياً واحداً من عملة البندقية[١]. ويشبّه عملهم هذا بما يحصل عليه الرهبان الكاثوليك الرومان من المسيحيين مقابل قراءة القربان المقدس، ويبين أن عدد هؤلاء الفراشين كبير جداً[٢].

إضافة إلى تلك المخصصات يذكر بيركهارت دخل المؤسسات العامة الدينية، أي الأوقاف الموقوفة على تلك المؤسسات، ويقصد بها المدارس والأربطة التي أنشئت كي تلقى فيها الدروس، ولمساعدة الفقراء وطلاب العلم، ويقرر أن دخل تلك الأوقاف (ينفق القسم الأصغر منه لمساعدة الفقراء أو لتحقيق الغرض الديني الذي دفع لأجله، بينما يذهب الجزء الأعظم لتدليل مجموعة من المنافقين عديمي الجدوى الذين ليس لهم أي هدف آخر وراء الحصول على علم ومعرفة سطحية تافهة سوى الأمل في المشاركة في الأرباح غير المشروعة التي تصبح حقاً شرعياً لحراس تلك المؤسسات أو عملائها)[٣].

كما يتهم العديد من العلماء والمدرسين بأنهم يتقاضون رواتبهم من تلك الأوقاف من غير تأدية واجباتهم[٤].

ولا تخلو الموارد الدينية في عرض بيركهارت من استغلال للمشاعر

(١) انظر: الرحلة ٢٨٨.

(٢) السابق نفسه.

(٣) انظر: الرحلة ٢٩٣.

(٤) السابق نفسه.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الدينية يتراوح بين الادعاء والاستجداء، فثمة فئة تستغل قدسية المدينة وتصنع من تراب يستخرج من مكان يدعى المدشونية قطعاً صغيرة مخروطة الشكل تمَّ تجفيفها في الشمس يبيعونها للحجاج للاستشفاء بها[١]، ويحققون دخلاً جيداً، وفئة أخرى لا يتردد بيركهارت بوصفهم بالمستجدين أو الشحاذين، وهم فئة كبيرة كما يدعي لديهم بعض العلم الشرعي، ويحفظون خطباً وأدعية معينة، ويسافرون إلى تركيا وبلاد الروم الأخرى ومصر، ويتصلون بوجهائها والمتنفِّذين فيها، ويشكون إليهم حاجاتهم، وربما يعملون في قصورهم لبعض الوقت في الإمامة، أو يخطبون في بعض مساجدهم، ويحصلون مقابل ذلك على أعطيات كبيرة، ويقرر بيركهارت أنه لقي بعضهم في مصر وأنهم (باتوا مزعجين إلى حدٍ بعيد بسبب توسلاتهم ووقاحتهم)[٢].

وآخر ما يرتبط بالموارد الدينية في عرض بيركهارت للاقتصاديات الدينية هو الخدمات السكنية التي يقدمها أهل المدينة للحجاج فيؤجرونهم بيوتهم أو غرفاً فيها، فإذا كان الموسم جيداً ووصل عدد كبير من الحجاج انتعشت إيجارات البيوت وانتعشت معها صيانتها وازداد الإقبال على عمارة بيوت جديدة، والعكس بالعكس، إذا قلَّ عدد الزائرين فقد أصحاب البيوت دخلهم الذي يعتمدون عليه أو نقص، وأهملت صيانة البيوت وتراجعت حركة العمران.

وعندما وصل بيركهارت إلى المدينة كان قد مرَّ عليها عدة سنوات عجاف في هذا الشأن منذ دخول السعوديين إلى المدينة توقفت قوافل الحج

(١) انظر: الرحلة ٢٩٨.

(٢)انظر: الرحلة ٣١٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من مصر والشام، وجاءت القوافل النجدية، ولكنّها لم تعوض عن القوافل الشامية والمصرية في الإنفاق.

ولما نشبت الحرب ثانية بين السعوديين وجيش محمد علي ظلت مواسم الزيارة مجدبة، ورغم عودة المحمل والقوافل الشامية والمصرية بعد استيلاء جيش محمد علي باشا على المدينة، فإن عدد الحجاج لم يعد إلى ما كان عليه، الأمر الذي أضعف واردات أصحاب البيوت فأهملوا صيانة بيوتهم، وبدت ملامح الكآبة عليها، وقد أشاد بيركهارت ببناء المدينة وعدها إحدى المدن الفضلى في الشرق، تأتي بعد حلب، ولكن تغير حالها بسبب الأحداث التي مرت عليها خلال السنوات الأخيرة، وأصبح لها (مظهر كئيب، فالمنازل تتآكل شيئاً فشيئاً، والمالكون الذين يجنون أرباحاً طائلة من حشود الزائرين القادمين على مدار السنة قد تقلص دخلهم فقاموا بالتالي بتخفيض مصاريف البناء الكبيرة؛ لأنهم يعلمون أنهم لن يتمكنوا من استرجاعها عبر تأجير الشقق، وتظهر المنازل المهدمة والجدران المتداعية في كل جزء من المدينة)[1].

وهكذا تتجمع تفصيلات الحياة الاقتصادية في المدينة المنورة في رحلة بيركهارت لترسم لنا صورة دقيقة لأنشطة محدودة تجري في مجتمع زراعي بسيط، تدعمه القداسة التي وهبها الله لمدينته، وجعلها مقصد الآلاف من المسلمين من أنحاء الأرض، ولكن هاتين الصفتين [الزراعية والقداسة] لم تخرجا بالاقتصاد إلى درجة النشاط المتميز، ولم تدفعا أهله إلى إنتاج متطور، وعلى العكس من ذلك اجتمعت فيه صفتان طفوليتان: البساطة والاتكال على الآخر، بساطة في الإنتاج الزراعي إلى درجة تعجز عن تأمين

(١) انظر: الرحلة ٢٧٠.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الاكتفاء الذاتي، وبساطة في التجارة إلى درجة الانحصار في تجارة التجزئة، وبساطة في الصناعة إلى حدّ الغياب، وبساطة في خدمات الزوار إلى حد الاكتفاء بالحدود الدنيا، والاتكال في الزراعة على الاستيراد لتأمين بقية حاجات السكان فضلاً عن الزوار، والاتكال في التجارة على تجار مكة وجدة وينبع في الاستيراد، والاتكال على الوافدين من الصناع أنفاً من الاحتراف، والاتكال على صفة القداسة لكسب المعيشة دون عناء.. وهذه جميعها صفات لحياة اقتصادية شبه راكدة تأخذ الكثير وتعطي القليل وتتأثر إلى حد بعيد بأبسط الأزمات، كتأخر قافلة أو معركة بين قبيلتين.

وبقدر ما يدهشنا بيركهارت في عرض التفصيلات الدقيقة والغائرة في عمق المجتمع بقدر ما يثير في نفوسنا من سؤال صعب نَجْهَدُ في البحث عن مصادر أخرى تجيبنا عليه: هل كانت الحياة الاقتصادية في المدينة بهذا القدر من السذاجة حقاً؟

لعل كتابات الرحالة الآخرين أو المؤرخين أو الوثائق التي تظهر ذات يوم تعطينا الإجابة الشافية والخبر اليقين.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ثبت المصادر والمراجع

١. أبو سالم العياشي، رحلة (ماء الموائد)، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٣٩٧هـ

٢. الجبرتي، تاريخ عجائب الآثار وعجائب الأخبار، دار الجيل، بيروت، د.ت .

٣. جوهان لودفيج بيركهارت، رحلات إلى شبه الجزيرة العربية، ترجمة هتاف عبدالله، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٥م.

٤. حمد الجاسر، رحالة غربيون في بلادنا، دار اليمامة، الرياض، ١٤١٧هـ.

٥. السخاوي، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، عناية أسعد طرابزوني. د.ت.

٦. السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، ط٤، ١٤٠٤هـ.

٧. شمس الدين سامي و درسعادات، قاموس تركي، إقدام مطبعة سي، ١٣١٧هـ.

٨. عبدالباسط بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ط١، ١٤١٤هـ.

٩. عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق: عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٣هـ

١٠. نجيب العقيقي، المستشرقون، ط٣، دار المعارف، مصر.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

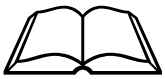

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة